# خط جديد للتماس

غسان سلامة *

■ في حوالى العشرين من عمره، أسود، طويل القامة رايته اخيراً على التلفزيون يتكلم فيقول ماساته: أسود البشرة، موريتاني الجنسية، هرب من وطنه الام الى السنغال المجاور. وعندما ساله المراسل عن سبب نزوحه اجاب بكلمة واحدة: لأني اسود.

نكرني الشاب هذا، على حزن عينيه بحماسة ديبلوماسي افريقي التقيته منذ سنتين، غداة انتصار قوات حسين حبري التشادية على القوات الليبية المرابطة في التشاد. قال لي آنذاك ما معناه: انت تعتقد على الارجح ان استرجاع التشاديين لسيادتهم على بلادهم انتصار لحبري على غوكوني عويدي، وللتشاد على ليبيا، وربما للغرب على الاتحاد السوفياتي، ولكنك مخطئ تماماً. ان هذا انتصار، ربما هو الاول من نوعه، من سود افريقيا على بيضها، ومن قلبها على هامشها الشمالي.

وجعلني الشاب الموريتاني نفسه انظر بعين جديدة لما هو حاصل في السودان حالياً، وفي جنوبه بالذات، حيث استقبل رئيس المتمردين السود جون قرنق وفداً من مجلس الشيوخ الاميركي دخل البلاد دون علم السلطات الرسمية في الخرطوم ودون اذنها طبعاً. ومن جنوب السودان طار قرنق الى بون وباريس وواشنطن حيث لقي اهتماماً واسعاً. وعلى الرغم من انضمام بعض الشماليين لحركة التمرد الجنوبية (بينهم منصور خالد، وزير الخارجية الاسبق) وعلى الرغم من بث مقولة ان حركة الجنوب السوداني سودانية بالمعنى الكامل للكلمة، وعلى الرغم من الخلافات القبلية والاثنية والسياسية التي تعصف حركة قرنق، فالواقع المحسوس يبقى ان حركة قرنق في اساسها نوع من تمرد جنوب السودان على شماله، وبمعنى آخر تمرد اسود على من هم اقل اسوداداً في بشرتهم.

وهكذا تتجمع امام المراقب صورة متكاملة لخط تماس جديد، يثير القلق في اصوله الاثنية والعرقية، وفي امتداداته الافريقية. فهو يتزامن مع عودة متسارعة لاسرائيل الى قلب القارة السوداء حيث يتزايد عدد بلدان التي قررت اعادة علاقتها باسرائيل، خصوصاً بعد عودة مصر الى حظيرة الجامعة العربية. ومن المؤشرات المثيرة قطع العلاقات بين السودان وافريقيا الوسطى بعدما رفضت السلطات السودانية عبور طائرة رئيس افريقيا الوسطى الاجواء السودانية وهو في طريقه الى اسرائيل. واعلن رئيس السوداني، من ناحية اخرى، لديه اثباتات عديدة على وجود اسلحة اسرائيلية بايدي المتمردين الجنوبيين. وهذا امر لن يفاجئ احداً.

### استقطاب جديد

بكلام آخر، فاننا نشهد في المرحلة الحالية تقارباً متسارعاً بين دول الشمال الافريقي، وفي الآن نفسه، ارهاصات توتر بينها جميعاً وبين الدول الافريقية المحاذية لها. كأن الامران مترابطين في الزمن وفي الاسباب. فالعلاقات المصرية - الليبية الى تحسن منذ قمة الدار البيضاء والنقاط الحدودية اعيد فتحها بين البلدين. والعلاقات المصرية - الجزائرية الى تحسن ايضاً بعد تلكؤ جزائري دام سنين عديدة. اما في المغرب، فقد بدت ارهاصات قيام تجمع مغاربي واسع، سيما بعد التفاهم المسيطر حالياً على علاقات المغرب والجزائر.

ولكن، بينما يتم توطيد اواصر العلاقات بين دول الشمال الافريقي تتزايد نقاط التماس الحادة بين عرب افريقيا والدول المجاورة لهم. ويبدو ان التقارب الحاصل بين الدول العربية لا يثير حماسة جيرانهم الافريقيين الذين لاحظوا بوضوح تغضب دول المغرب للقمة العربية على حساب الفرنكوفونية المنعقدة في الآن نفسه في العاصمة السنغالية بحيث بدا بوضوح ان الرابط العربي يفوق اهمية اي رابط جغرافي بافريقيا عند ملك المغرب و رئيسي الجزائر وتونس. وهذا ايضاً يثير شكوك الافارقة.

اما نقاط التماس فاصبحت معروفة عند الجميع. فالخلاف بين الصومال واثيوبيا ما زال قائماً، ومعظم الحكومات العربية تؤيد الاول ضد الثانية. وداخل اثيوبيا، رأينا بالامس محاولة انقلابية واسعة كان محركها الاساسي خلاف داخل السلطة القائمة حول موضوع اريتريا (التي تلقى دعماً عربياً)، فانتصر المتشددون بقيادة رئيس الدولة الحالي على دعاة التسوية والمهادنة. والخلاف داخل السودان مستشر بطريقة مخيفة فالقتلى يتكاثرون، وضحايا الجوع، وانعدام وسائل نقل المعونات والفوضى الكاملة وتكاثر الخلافات بين القبائل اصبحت على الصفحات الاولى من صحف العالم.

أضف الى ذلك ان القوات التشادية دخلت اخيراً الاراضي السودانية لملاحقة انقلابيين على حبري يدعمهم السودان. ويبدو انها استطاعت اللحاق بهم واعتقالهم او قتلهم داخل السودان. هذا ان تناسينا لحظة ان السلطة في التشاد هي سلطة «شماليين»، في مجموعة كثيفة من الافارقة تعيش في الجنوب من عاصمة البلاد، نجامينا. وبعض هؤلاء الانقلابيين موجود حتى في طرابلس الغرب، مما يعطي صورة عن استمرار التوتر في العلاقة الليبية - التشادية... ناهيك عن مشاكل ظرفية بين ليبيا من جهة والنيجر ومالي من جهة اخرى.

اما في الطرف الغربي لخط التماس هذا، فالامور استفحل خطرها. لقد قام السنغاليون باعمال حمقاء كثيرة ضد الموريتانيين المقيمين بينهم، وهكذا فعل الموريتانيون بالاقلية السوداء البشرة المقيمة في العاصمة نواق الشط او (نواكشوط) وجنوبها. فتم ترحيل وترحيل مضاد، واضطهاد واضطهاد متبادل، وفورات شعبية (لن احكم بمدى عفويتها) وفق اسس اثنية وقبلية فاضحة. والامر قابل لان يتطور في اي لحظة الى حرب مدمرة بين السنغال وموريتانيا.

### خط التماس

خط التماس العربي - الافريقي، خط دموي، او هو اصبح كذلك، وهو ينطلق من دجيبوتي على البحر الاحمر، وينتهي على شواطئ الاطلسي. فاما نراه، ونبحث في اسباب قيامه ونحاول مداواته، واما ان نتركه، نحن، معشر العرب، يتفاعل ويتعاظم ويصبح اكثر دموية. اما ان نعترف بوجوده ثم نحاول معالجته واما ان ندع للاطراف الخارجية، التي لا تريد خيراً لا للعرب ولا لجيرانهم، مهمة جعله خطاً دائماً ومدمياً. اما القول بان وحدة الدين كفيلة لذاتها بحل هذه الاشكالات فهو مدعاة للسخرية، فوحدة الدين هذه لم تجنبنا أهوال الحرب العراقية - الايرانية، ولا مشاكل الحرب الليبية - التشادية ولا تنافراً مغربياً - جزائرياً عميقاً - ثم ان عدداً من الاطراف على جنوب خط التماس هذا لا تدين بالاسلام اساساً. بل انه من الخطر الاكيد الانزلاق الى نوع من التديين المصطنع لهذه الخلافات مما سيزيدها حدة وتعقيداً.

انما الرشد هو المطلوب، ان في المسائل الداخلية او في المسائل الاقليمية. وعلى الاطراف العربية بالذات ان تكف عن اي مسلك تشتم منه رائحة التفوق الحضاري او الثقافي. وعليها ايضاً ان تعترف بان بعض المساعدات النفطية الى تخومنا الافريقي قد ادى الى شراء الوقت لا الى حل القضايا المزمنة والممعنة في تعقيدها.

وعلينا بالتالي، نحن معشر العرب ان نثبت لجيراننا، داخل كل من البلاد المعنية، حرصنا على الوحدة الوطنية: في موريتانيا، والسودان، والتشاد وغيرها. فليس هناك من رابط قومي او ديني يحق له ان يتحول الى سبب للاضرار بالوحدة الوطنية داخل كل بلد. قد تكون الحدود مصطنعة نعم، وقد تكون الولاءات التقليدية اعمق واشد تاثيراً من الشعور بالمواطنة وبالولاء لدولة حديثة. ولكننا تعلمنا شيئاً اساسياً من حرب لبنان، وقبلها من حروب اليمن والسودان، وهو اننا غير قادرين في المرحلة الحالية من تاريخ النظام الدولي، على تغيير الحدود الدولية القائمة وعلى التلاعب بها، لا باتجاه الانفصال ولا باتجاه التوحد.

وحتى يتغير النظام الدولي باتجاه مخالف، علينا القبول بالاطر الدولية القائمة والعمل من خلالها. وافضل برهان يقدمه العرب اليوم الى جيرانهم الافارقة هو التعبير عن حرصهم على الوحدة الداخلية في السودان والتشاد وموريتانيا وغيرها من دول التماس العربي - الافريقي. والوحدة الداخلية لا تقوم على السيطرة العرقية او الدينية. انها تقدم على حق الاختلاف، وعلى روح المساواة، وعلى حرية الافراد والجماعات.

من هنا يطرح خط التماس اسئلة جديدة ومحرجة للحكومات العربية المعنية. فهو يشير الى انحسار تدريجي في الصداقة العربية - الافريقية، ولكنه يشير ايضاً، وبعنف، الى غربة الطرفين، العربي كالافريقي، عما سماه الملك الحسن الثاني غداة انعقاد قمة الدار البيضاء بـ «موضة القرن العشرين»: الديموقراطية.

---

* استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الاولى.